أيتها الابتسامة !

للأستاذ محمود الخفيف

أتوقّاكِ ما رأيتُكِ جُهْدي   وأعافُ الوضيءَ من لمحاتِكْ
مثلُ لمعِ السرابِ لمحُكِ عندي
ليسَ غيرَ السرابِ أصلُ صفاتِكْ

أتوقّاكِ ، لا أسيغُكِ ... إني
مَنْ سقاهُ العذابَ لمحُ السرابِ
أبدًا فيكِ ليسَ يُخطئُ ظنّي
بل يَزيدُ اليقينَ فيكِ ارتيابي

أتوقّاكِ ! كم سحرتِ خيالي
بأفانينَ من زُروقِ الخداعِ
يومَ كانَ الفؤادُ غِرَّ الليالي   لم تُذِقْهُ الحياةُ لؤمَ الطباعِ

أيُّ معنًى للخيرِ أطمعُ فيه   من معانيكِ في وجوهِ الرجالِ ؟
أيُّ طيفٍ للسحرِ لا أتقيه   في وجوهٍ تُزهى بسحرِ الجمالِ ؟

صُوَرٌ أنتِ من ضلالِ الحياةِ   وطيوفٌ بغيضةٌ أتقيها
عِفْتُ حتى ما حارَ من بَسَماتي   بين سُحْبٍ من الأسى تحتويها

أتوقاكِ ... كم لمحتُ طِلاءً   يحجبُ الإفكَ في حنايا الضلوعِ
يحملُ الحقدَ ما يريدُ انطفاءً   والعداواتِ ما لها من هُجوعِ

أتوقاكِ صورةً للتشفّي   سوأةً مُيِّزَتْ سليلَ التُّرابِ
أيُّ وصفٍ لهذه أيُّ طيفٍ   غيرُ ظُفْرٍ تحتَ الطِّلاءِ وناب ؟!

أتوقّى مرآكِ في وجهِ حُرٍّ   باسمٍ وهْوَ لا يطيقُ ابتساما
وجهِ غِرٍّ ما كان يومًا بِغِرٍّ   غيرَ أن الرَّشادَ أن يتعامى !

أتوقّاكِ في مُحيّا دَعِيٍّ   في ابتساماتِهِ أرى الخُيَلاءَ
يتبدّى يا ويحَهُ من غبيٍّ   في عُبوسٍ وفي ابتسامٍ سواء

وكريهٌ مرآكِ بَسْمَةَ ذُلٍّ   في وجوهٍ ذليلةِ القسماتِ
تتّقي عسفَ كلِّ عاتٍ مُدِلٍّ   بكلامٍ من ضارعِ البسماتِ !

وشجًى للنفوسِ مرآكِ مَغْنًى   من تمادي مُغالبٍ لهوانِ
حطّهُ الدهرُ ما ارتدى بكِ لونًا   من تأسٍّ يشفُّ عمّا يُعاني

أتوقّاكِ آيةً للوفاءِ   رُكِّبَتْ من تملّقٍ ودِهانِ
يا أزلّي في صورةٍ نكراءِ   ذكّرتني ضآلةَ الإنسانِ

جمرةٌ في الحشا ورشقةُ سهمٍ   في صميمِ الفؤادِ مرآكِ حينا
إذ يرى العاشقونَ في غيرِ وهمٍ   أن همسَ الظنونِ أمسى يقينا
إذ يرونَ الخداعَ أنقضَ ومضًا
من شُعاعاتِ خنجرٍ مشهورِ
هو من حدِّه أحزُّ وأمضى
إنَّ أنكى الجراحِ جرحُ الشعورِ

أتوقّاكِ ما لمحتُ لعيني
لمحةَ الكأسِ ضوّأتْ بالسُّلافِ
رُبَّ كأسٍ يحلو إليها التمنّي   مُزِجَتْ خمرُها بِسُمٍّ زُعافِ

أتوقاكِ ! ... شدَّ ما أتوقّى   صُوَرًا منكِ عنَّ عنها بياني
إن يكنْ عافَها حياءٌ ورِفقًا   رُبَّ صمتٍ حوى بليغَ المعاني

أين يا قلبُ ؟ أين تُبصرُ عيني   بسمةً لا يكون منها عنائي
ويكَ يا قلبُ قد سئمتُ التمنّي   وأراني كرهتُ فقدَ الرجاءِ !

قد أحبُّ ابتسامةَ الطفلِ لولا   خاطرٌ ساءَ وقعُهُ في خيالي
لن تراهُ الغداةَ عيناي طفلًا   إن فيه الغداةَ لؤمَ الرجالِ

وأسيغُ ابتسامةَ الزهرِ لولا   سوءُ مرآه ذابلًا في المساءِ
ويحَ نفسي كم علا النفسَ هولًا   كلُّ حُسنٍ تطويه كفُّ الفناءِ